أثر الحضارة العربية

في الاندلس وصقلية وما اليها[1]

بقلم محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ووزير معارف سوريا سابقاً

لما بدأ العرب بفتوحاتهم في الاسلام فقضوا على فارس واقتطعوا من بزنطية مملكة الروم الشرقية الشام ومصر وسواحل افريقية كانت فارس والروم اقوى دول العالم وأكثرها حضارة ، وكان العرب شبه متحضرين يتعلمون ممن غلبوهم ما يصلح الملك والسلطان . وما انقضى ثمانون سنة على خروج العرب من جزيرتهم حتى اضافوا ما عرفه المغلوبون الى ما عرفوه هم من اساليب الحرب والادارة فرأيناهم وقد مكّن لهم في المغرب يستولون على الاندلس ويتوسعون في فتوحهم جنوبي فرنسا

وبينما كان بنو أمية في الشام يديرون ملكاً عظيماً ويضعون اسس المدنية العربية بنقل العلوم المادية عن السريانية والقبطية والرومية ويعنون كل العناية بتدوين العلوم الدينية والادبية وقد بدأت طلائع الحضارة في البلاد التي اظلها سلطانهم ، كانت بلاد الغرب اللاتيني في احط دركات المدنية بل كانت الى همجية مرمضة تعد بداوة العرب في جزيرتهم قبيل الاسلام مدنية اذا قيست ببداوة الغرب . بلى كان الناس يعيشون في بلاد اللاتين والانجلوسكسونيين والجرمانيين والصقالبة في توحش مدقع وأوربا خاصة بالغابات الكثيفة متأخرة في زراعتها والمستنقعات في كل ناحية تحصد الارواح والوبالة والاوبئة تغادي تلك الشعوب التذرة وتراوحها لا يعرفون البيوت الصحية ولا الفرش الوثيرة تنام الاسرة كلها في غرفة واحدة على فرش من تبن او نبات مجفف وهي الى الفطرة بعاداتها وأكلها وشربها ولباسها ومجالسها . وبيوت لندرا وباريس اكواخ صغيرة بنيت من احجار مضفورة مضفوفة كيفما اتفق وهناك قلاع وابراج وكنائس لا هندسة لها

وليس في الغرب شيء اسمه أمن وأمان ويقضي على كل انسان ان يكون على استعداد في كل حين ليردّ الاشقياء عن داره وحقله وفي غدوه ورواحه فلا ينام الا وسلاحه الى جنبه ولا يستطيع المرء ان يسير فراسخ قليلة دون ان يستهدف للقتل او السلب ، وقد جعل بعض ارباب القوة من نهب عروض الناس في الطرق مهنة لهم يعيشون منها يقتلون ويقتلون وما من حكومة قوية تناقشهم الحساب على ما تجبي ايديهم لان الامراء كانوا مع رجال الدين اشبه برؤساء عصابات منهم بزعماء بلاد. ولم تكن اوربا كلها تدين بالنصرانية بل كان من ممالكها من لم يزل على مجوسيته ووثنيته. والنصرانية

(١) القيت في جامعة القاهرة الاميركية وينتظر ان تصدر مع سائر المحاضرات في كتاب على حدة يطبعه ويقدمه الياس انطون الياس صاحب المطبعة والمكتبة العصرية

دخلت المدن اولاً وتسربت الى القرى والمعاسكر إبان الزمان ، وبينما كان شارلمان اعظم ملوك الغرب أميّاً او يقرب من الامية كان المنصور والرشيد والمأمون يترجم لهم كتب الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة والصناعات . وبينما كان اهل تلك الامم كلهم ما دوّنوا كتاباً ولا اخباراً ولا عرفوا ادباً ولا شعراً ، كان العرب قد انشأوا في كل قطر نزلوه كتلاً علمية ومجالس ادبية واصبح عامتهم يقرأون ويكتبون وخاصتهم ينظمون وينثرون ويخطبون ويؤلفون ويبحثون في العلم والفلسفة على طريقة اشبه بطرق اهل المدنيات الحديثة في حين كان نبلاء القرون الوسطى في الغرب لا يمتازون عن الفلاحين بمذهبهم وعلمهم وكلهم اميون جهلاء قساة الطباع يستحارن كل منكر لا يعلمهم غير الشراب والطعام والصيد والغارات

وبينما كان الغرب لا يعرف حياة الرفاهية ، ومن اهله كسكان شلزويك هولشتاين) في الدانيمرك من كانوا كانوحوش يسترون عوراتهم بقطع من الجلود شأن كثير من الشعوب في شرق اوربا وشمالها ولا يحسنون دبغ الجلود ولا خياطتها ايضاً كان العرب قد دخلوا في مباهج الحياة ورفاهة العيش يلبسون ونساؤهم احسن الاكسية من الحرير والقطن والصوف والكتان ينسجونها في معاملهم ويحوكونها على انوالهم وهي وافية بحاجات الحضري والقروي منهم على اختلاف الفصول

كان اول احتكاك مدني وقع بين العربي والغربي في آسيا الصغرى لانها كانت ميداناً للغارات بين العرب والروم منذ اقتطع العرب الشام من املاك البيزنطيين وحاولوا ان يتقدموا الى فتح القسطنطينية . وتكون الغزوات بين الفريقين سجالاً فيأخذ كل فريق من الفريق الآخر أسارى قد يقضون في بلاد عدوهم اعواماً فيتعلم العربي الرومية ويتعلم الروي العربية ويزور في ايام المهادنات والسلام بعض اهل الطبقة العالية والوسطى البلاد المجاورة ويرى كل ما عند الفريقين من اسباب التفوق وما خلت بلاده مما عند جاره من عوامل النهوض واساليب القوة في الامم

ولما انبلج فجر القرن الثاني زادت ساحة اخرى لتعارف العربي بالغربي وهي ساحة جنوب اوربا الغربية أضيفت الى ساحة جنوب اوربا الشرقية بفتح العرب الاندلس سنة (٩٢هـ) عند ما قضوا على مملكة الويزغوت او القوط كما كان يطلق عليهم العرب . وانحاز الاسبانيون الى شمال جزيرة ايبريا يعتصمون في جبال جليقية ويستأثر العرب بمعظم بلاد اسبانيا والبرتقال يستصفونها من البحر الروي الى بحر الظلمات ويقرون اهل البلاد على قضائهم وادارتهم ويعدلون فيهم ويقلدونهم بعض الاعمال الصغرى يتفهون منها الى كبرياتها بعد زمن قليل . ومن عادة العرب اذا فتحوا قطراً ان يبقوا لاهله اوضاعهم ومصطلحاتهم وتراتيبهم وان يحكموه لاول الامر حكماً اشبه بالحماية ثم يحيلونه ملكاً صرفاً ، وهذا من بديع سياستهم. وكانت الجزية التي ضربها العرب على غير المسلمين زهيدة بالقياس الى ما كانوا يستمتعون به من الراحة والطمأنينة وقضت شروط الصلح على ان تجعل على كل رجل حر بالغ ديناراً واحداً في السنة واربعة امداد قمح واربعة امداد شعير ومقداراً من الخل والعسل والزيت وعلى العبد نصف ذلك وان تحفظ على اهل البلاد دماؤهم فلا يسبون ولا يفرق بينهم وبين اولادهم ونسائهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم

وما عمّ الاسبانيون والبرتقاليون ان شاهدوا الفرق المحسوس بين ثقافة العرب الغالبين وثقافة

المغلوبين وادعى بعضهم ان حضارة الأندلس كانت لا بأس بها بدخول العرب وذلك ان القوم نسوا لغتهم بمجرد استيلاء العرب على اسبانيا فما انقضت ثلاثون سنة على الفتح حتى اصبح الناس يفسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية كما كان يفعل اليهود بمخطوطاتهم العربية وما مضى نصف قرن حتى دعت الحاجة الى ترجمة التوراة والقوانين الكنسية الى اللغة العربية ليتمكن رجال الدين انفسهم من فهمها وما انت على الفتح خمسون سنة حتى اصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية والعقود والمواثيق تكتب بالعربية حتى بين الاسبانيين انفسهم. واتخذ النصارى من اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم وقلوبهم واحتفوا بحفون تلاوة قصائد العرب وقصصهم ويدرسون كتب علماء الاسلام وفلاسفتهم لا ليردوا عليها بل ليحاسوا بها منطقهم، يقرأون العربية بلذة ويقتنون كتبها بالاثمان الغالية يؤلفون منها خزائن نفيسة ويذكرون في كل مكان ان آداب العرب مما يعجب به واذا حدثتهم عن كتبهم الدينية اجابوك بازدراء ان هذه الكتب غير جديرة بالتفاتهم ، وما كنت تجد في الف رجل من يكتب رقعة مناسبة باللغة اللاتينية وانت اذا كلفت احدهم ان يكتب بالعربية تجد جمهوراً يعبرون عن افكارهم بهذه اللغة على صورة بديعة وقد ينظمون من الشعر العربي مايفوق بما فيه من الصناعة شعر العرب انفسهم

لم يمض قرن على فتح الأندلس حتى اخصبت القرى وكثرت المزارع واتصل العمران وزاحم الناس بالمناكب في المدن ، وغدت قرطبة عاصمة البلاد كعواصم اوربا اليوم ، تنار ليلاً بالمصابيح يستضيء الساري بسرجها ثلاثة فراسخ ، وكان من رجال الحسبة وهي أشبه بالمجالس البلدية ودواوين الشرطة اليوم، ان يبسطوا الشوارع واخذوا كل يوم يرفعون القمامات والقاذورات ويزال ضرر المجاري والفني لئلا يتأذى بها السكان ولا يبني من يحب البناء الا على طريقة هندسية يعينها له ديوان الحسبة ليترك فراغاً يتمتع به الجيران وابناء السبيل لا يمنع عنهم الشمس والهواء ولا تتضايق المارة مهما كثر سوادهم . فقرطبة اذاً اول مدينة في العالم كان لها مثل هذا النظام . وما لبثت ان غدت عاصمة علم وصناعة وفن وحضارة، وكعبة يحج اليها بعض النابهين من اهل الغرب ينظرون الى تراتيب العرب ونظمهم واحكامهم نظر الدهشة والاستغراب ومثلها كانت طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس في الشمال والجنوب

وتقل بنو أمة متى كانت الاندلس احدى ولاياتهم وبعد ان فتحها عبد الرحمن الداخل الاموي فتحاً ثانياً واستقل بملكها بعد تغلب العباسيين على دولة اهله في الشرق — اصول آله في ادارتهم واحكامهم واوضاعهم وطراز هندستهم في القلاع والجسور والدور والقصور والجوامع حتى لقد جعل العرب البيوت والمساكن في ارض الاندلس على الطراز الذي عرفوه في عاصمتهم القديمة دمشق كأن تدخل البيت من دهليز طويل ينتهي بفناء واسع وسطه حوض ماء وعلى جوانب صحن الدار غرف وابهاء ومقاصير يأوي اليها اهل البيت في الصيف وفي الشتاء ينزلون في الطبقة الثانية من الدار وفيها جميع المرافق وفناء الدار غاص بالازهار وبعض الاشجار المثمرة او المنطقة للهواء . والدار طبقتان فقط وتكون غرف الرجال ومثاوي الضيوف معزلة عن غرف النساء ولا يزال هذا الترتيب في البيوت محبباً الى الناس في الولايات المعروفة بالولايات الاندلسية الى يوم الناس هذا يجددون دورهم

على هذا الطراز واتسعت الاندلس من عهد عبد الرحمن الثالث الاموي ملك الملوك وجامع الآداب والعلوم والتمدن والتجارة وعلى عهد الخلافة ولا سيما ابنه الحكم الثاني احسن الممالك حضارة وعمراناً وحسن ادارة في القرون الوسطى بل ان رسيم البزنطيين والمراحسين وان كانوا من البربر الا انهم يختلفون الحضارة العربية ، بل ان الملوك من بني الاحمر يسميهم بها بعد الآن يتسعجون في الاندلس على منوال الامويين كما لم يجد ملوك الطوائف والمتغلبون على الاطراف مندوحة من الجري على هذا المثال في خدمة العلوم والآداب يتنافسون في اختيار خيرة العلماء والادباء لتقليد الاعمال . ولقد وهت في الاندلس بعد بني امية امور كثيرة ولا سيما في السياسة ولم يضعف فيها العلم والصنائع والتجارة والزراعة ، وكان ولاة الامر الى الخير في عامة احوالهم تقل الرشوة فيهم ويبتعدون عن كل ما لا يعبث باصل من اصول الدين في الجملة . وكان معظم ملوك العرب على السنة دائم بملوك الاندلس وامرائها يوم كانوا لاول سلطانهم في عاصمتهم قرطبة وكذلك لما ضغط عليهم ملوك قشتالة وضبعوا في عاصمتهم غرناطة . وما بقي من آثار العرب الكثيرة في جامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة الى اليوم دليل ناطق بما بلغته حضارتهم من مراقي الفلاح الباهر

وادخل العرب الذين جلوا الى الاندلس وسكنوا في المدن والارياف سكنى دائمة طرائق معيشتهم واصول زراعتهم وصناعاتهم على النحو الذي ألفوه في المشرق ادخلوا اليها كثيراً من اصناف الحبوب والبقول والاشجار وزرعوا القفرات واحيوا الموات وعمروا القرى والمدن وادخلوا الى الاندلس معظم الصنائع واخذوا يجرّون المياه في بسائط الجزيرة بما اقتبسوه من الخرانات والنواعير وبما عرفوه من اساليب الهندسة في تقسيم المياه ، واسداد بلغتهم الباقية الى اليوم شاهدة بتفننهم في اعمال الري والسقيا ، وهي اثر من آثار نبوغهم في الهندسة . ويغلب هذا العلم على اهل هذه الولاية حتى لتقرأ في تراجم الرجال ان فلاناً امام الجامع الاعظم كان مهندساً وفلاناً قاضي الجماعة وقاضي القضاة كان مهندساً رياضياً . وامتع العرب ابناء البلاد من النصارى — وكانوا يسمونهم المستعربين كما يسمون المسلمين الخاضعين لاسبانيا المدجنين — بعامة حرياتهم يبنون ما شاءوا من بيع وكنائس ويعقدون مجامع اساقفتهم ، وقد عقدوا (سنة ٧٨٢ م) مجمعاً في اشبيلية وفي (سنة ٨٥٢ م) مجمعاً في قرطبة . وكان رجال الدين من النصارى يدعون الى دينهم في صميم بلاد الخليفة الاندلسي وربما وقفوا على ابواب المساجد يستعطفون المسلمين ليثوا دينهم بينهم ويتعرضون للقتل والاهانة حتى تكتب لهم الشهادة والسعادة . والمسلمون لا يتعرضون لهم واذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً . وبلغ من سياسة العرب في الاندلس انه اذا شجر خلاف بين مسلم ونصراني من الجند يعطي الحق غالباً للنصراني فنشأت بذلك وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ، وكان الغالب يؤثر في أقصى قسم عظمته وقوته

ولقد علّم العرب الشعوب النصرانية كما قال العلامة جوستاف لوبون ثمن العدالة الانسانية واعني بها التسامح ، وما تناول التبدل الذي ادخلوه الى الغرب الماديات والمقتنيات فقط بل تعداها الى تحسين الاخلاق ، وكان العرب يتغلبون على صفات فيها الكرم والاحسان رفيها النبل وعزة النفس مما لم يكن له اثر عند غيرهم . وانتحل الاسلام كثير من الاندلسيين وما كان لهم غير مصلحة

مثيلة في ذلك لان النصارى في الحكم العربي كانوا يساوون كاليهود ايضاً بقواعد المساواة ولهم ان يتولوا جميع اعمال المملكة . وكانت تجري على سادات الاسبان احكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ومن فاز محتفظاً منهم بدينه تنمى تقاليده . وصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدي بازيائهم وانبستهم وعاداتهم في مآديهم ورفاهيتهم ولذائذهم ويزهد في اللغة اللاتينية ويجتهد في تعلم اللغة العربية وتسمى الاسبان اصولهم واستعربوا باسمائهم واخلاقهم وانشأوا يفتخرون بالعربية وصار الخلفاء يختارونهم عمالاً لادارتهم ونساء لشورتهم يفضون اليهم باسرارهم وكان كثير من اذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين دع من كانوا في البلاد الواقعة في حكم المسلمين من ارض الاندلس يتعلمون العربية ويتصدون الخليفة الاندلسي او احد رجاله يستخدمون في ارضه

وتزوج العرب من بنات الاسبانيات والبرتقاليات وشاع هذا الزواج بين العرب واهل ملوك النصارى على عهد انقسام الاندلس بين ملوك الطوائف يتزوجون من بنات امراء المسلمين فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة امير اشبيلية وعقد مثل هذا الزواج غير مرة وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات من المسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر ايام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب . ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللحم والسروج وكلف بسائهم وكثير من اهل الطبقة العالية من المسلمين كانوا يعرفون لسان جيرانهم ويتشبهون بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات وكان بعض ملوك بني الاحمر يتزيا بزي الاسبان وكذلك اجنادهم . وذكر العلامة ابن خلدون ان الاندلسيين لعهده اخذوا يتشبهون بلبم الجلالقة في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت وعد ذلك من علامات الاستيلاء . ولقد قالوا ان عزيز بن خطاب وكان من اكابر العلماء لما ملك على مرسية استمع خطبة الخطيب حاسر الرأس على مثال ملوك الافرنج وكذلك كان ابن هود يسير في بلاده حاسراً وعلى هذا درج بنو الاحمر . وكان يسمح لعلماء المسلمين هناك ان يرخوا ذوائبهم على مثال رجال الفنون والادب من الاسبان وأحد النساء وانبات المسلمات يقلدن الاسبانيات في العهد الاخير بملابسهن والسفور او الحجاب الذي لا بال له» ولم من تسامح امراء المسلمين في الاندلس ان منذر بن يحيى صاحب سرقسطة وأذكنها ان اجرى زواج ويمند الجليقي وشانجه القسطلي من ملوك الاسبان على يديه وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقسطة في حفل من اهل الملتين . وذكروا ان بعض الاندلسيين كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة وفيها صور الآدميين وغيرهم

كانت الاندلس العربية البلد الوحيد في الغرب الذي كانت فيه حقوق اليهود مصونة من جور الجورة فانهالوا عليها من كل فج وكثر فيها سوادهم ومنهم من انصرف الى خدمة الدولة وتعلم العلوم كالطب ونحوه ومنهم من انتفع بما ربطته حكومة الاندلس مع البلاد المجاورة من الصلات التجارية فكانوا من اول التجار الذين تسافر متاجرهم مع متاجر العرب والبربر وغيرهم على الاساطيل التجارية

مقدمة من مالقة ومجانه والمرية وشلونة ثم صعدوا الى الشرق والى شمال افرنجة وجنوب اوربا غلال الاندلس وتأتي اليها بغلال البلاد القاصية . وبعد انقضاء عقود من السنين كان النقل لبعض علماء اليهود في الاندلس بنقل الحضارة من العربية الى العبرانية واللاتينية فعلموا علم سادتهم بالامس الى من لم يلقوا منهم في معظم الادوار الا العنت والارهاق وربّ كتاب ضاع اصله العربي وبقيت ترجمته اللاتينية او العبرانية على نحو ما كان من السبعين كتاباً التي نقلها في مدينة طليطلة من العربية الى اللاتينية جيرارد دي كريمونا في القرن الثاني عشر وهي في الطبيعة والنجوم والهندسة والطب والطبيعة والفلسفة

وعدّ عرب الاندلس المناجم على اختلاف ضروبها فكانوا يبعثون بما يستخرجونه من ارضهم ويصنعونه من السلاح في معاملهم وبالحرير والجوخ والجلد والسكر والورق الى افريقية وسائر بلاد المشرق والمغرب واشتهرت معامل الورق في شاطبة اشتهار قرطبة بجلودها وسلاحها وحليتها واشبيلية بحريرها ومالقة بزجاجها والمرية بوشيها وديباجها وجوخها وباجة بنسج كتانها وسرقسطة بسلاحها وريه بسجادها وطليطلة ومرسية بأسلحتها . وكانت اوربا الغربية تأخذ ورقها من الاندلس واوربا الشرقية تستبضعه من معامل دمشق وحلب وطبرية وطرابلس من الديار الشامية . وحمل العرب الى الغرب من جملة الصنائع صناعة السجاد وصناعة السفن فجعلوا في كل فرضة بحرية من موانئ الاندلس على البحر الرومي وبحر الظلمات دور صناعة تخرج لهم السفن الوافية بالغرض في تلك العصور . فكان الانتفاع من البر والبحر على اتم حالاته . وكانوا يستخرجون من دابة تحتك بحجارة على شط البحر في شنترين وبراً في لوش الخز لونه لون الذهب وهو عزيز قليل تنسج منه ثياب فيتلوّن في اليوم الواناً ويحجز عليها ملوك بني امية فلا تنقل الا سراً وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لوزنه وحسنه . بل بلغ من غرام ملوك غرناطة بالعلم انهم افرضوا جوائز للمخترعين ليلتمسوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة وان يجيزوا بالمال الكثير من يستظهرون كتاباً يعينونه في الفن الفلاني . وكما كانت للاندلسيين مجامع علمية تجتمع في اوقات مخصوصة من السنة كان علماؤهم يؤلفون ورسائل ينفعهم كل انسان تكون له عوناً على الانتفاع بالاعمال العامة اي دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتعبدهم فيما هم بسبيله

وانتقلت بعض صناعات العرب واساليبهم الى فرنسا ولاسيما في الزراعة وحفر الترع والخلجان ونظام الري وكانوا انشأوا الطرق والجسور والخنادق للسياح والمستشفيات والجوامع والرباطات في كل محلة ومنزل ورأى الفرنسيس كيف عمر العرب ناربون وبروفنسيا لما استولوا عليها وكيف نظموا اساليب سقياها وادخلوا اساليب عمرانهم الى قرقشونة ونيم واترن وسانس وافنيون ومرسيليا وارل وبوردو ومنها ما جعلوه قاعدة لاعمالهم الحربية والبحرية ووقفوا عند حدود سيتمانيا حيث اقاموا لهم فيها مراكز دائمة وعقدوا عهوداً مع اهل البلاد . وكان رجال الكهنوت في تلك الاصقاع يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين لان هؤلاء ما كانوا يتحرجون من الاستيلاء على املاك الكنائس واخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسلمين والنصارى ولما ارتدّ العرب عن اقليم سيتمانيا سنة (٧٥٩ م) احتفظوا هناك باملاكهم وبيوتهم